حديث بلغتين

قصة بقلم الدكتور
عبد السلام العجيلي

على باب الفنـــــدق في باريس ، فندق الاكاسيا وراء ساحة الاتوال ، التقيا : أ. وصديقته ، وم. وصديقته .

كان لقاء غير متوقع ، من كليهما ، فهتف كـــل منهما بالآخر : أنت هنا ؟ ثم ضحكا . ضحك م. بطلاقة ، وبصوت مرتفع ، ومد يده باندفاع ليصافح كف أ. . تلك الكف ، كف أ. ، امتدت كعادتها في تؤدة وحـــذر ، ولكنها شدت قبضتها على أصابع م. بينما كـــان صاحبها ، أ. ، يضحك ضحكته الهادئة ، الخافتة ، التي يعرفهـا م. جيدا . قال أ. :

ـ لندخل الى الصالون .

صوته ، صوت أ. ، خافت في حزم ، لم يتغير عما كان عليـه منذ سبع سنين ، منذ تقابلا وجها لوجه آخر مرة . بعـــد تلك المرة رآه م. في الصور ، وسمع صوته في الاذاعات ... وقد يكون لمحه مرة يعبر الشوارع في سيارته الرسمية المصفحة ، بينما كان الجنـود الموزعون على جانبي الطريق ، في كل عشر خطوات جندي ، يرفعون بنادقهم الى أكتافهم ويقفون وقفة تحيـــة للدكتاتور العابر ، وبينما كانت أكف الجماهير الواقفة على الارصفة تنطلق مصفقة عند مروره بحذائها ... قد يكون م. لمح أ. في مناسبـــة من تلك المناسبات ، الا انه لم يقابله في تلك الفترة مقابلة شخصية . وها هو الآن يراه بعد ثلاث سنين من تركه منصبه ... من سقوطه من عل . أتراه تغير عما كان عليه ، أم ان تغيره كان في الفترة التي تربع فيها على عليائه، ثم عاد اليوم الى ما كان عليه قبل ذلك التربـــع ؟ لم يكن م. يملك الوقت ليجيب على هذا السؤال الذي القاه على نفسه ، فان أ. تقدمه الى الصالون ولحقت به صديقته . فكان لا بد ان يجتاز م. بـــاب الفندق وراءه .

في زاوية من البهو الصغير ، والانيق ، اكمل أ. ضحكته الهادئة قبل ان يقول لرفيقته :

ـ بياتريس ... م. هذا الذي يقف امامك أخ لي قديم . ما اسم صاحبتك ؟

هذا السؤال الاخير ألقاه أ. بلغتهما . فرد م. بالفرنسية :

ـ انها فيرنا ... صديقة من فنلندا ، ولكنها تتكلم الفرنسيـــة جيدا . هذا هو صاحب السعادة أ. يا فيرنا ...

فردّ أ. ، قائلا جملته الاولى التالية بلغتهما المشتركة ، ثم مكملا كلامه بالفرنسية :

ـ أنا لست صاحب سعادة هنـــا ... لا تنس هذا . اجلسوا لنشرب كاسا نخب هذا اللقاء الذي لم يخطر لنا على بال .

ولم ينتظر موافقة أحد على اقتراحه ، ولا أن تجلس الفتاتـان قبله ، بل ألقى بنفسه على أريكة مخملية كان قد وقف عندها ، جـارا معه ، بلطف وانما بتصميم ، بياتريس التي كانت كفه ممسكة بكفها .

* * *

دار الحديث باللغتين : بالفرنسية ، وبلغتهما ، لغة أ. وم. .

أوله كان بالفرنسية . كان اطراء ساقه أ. لفيرنا ، صديقة م. . بدا كلامه خافتا بكلمات متقطعة ، متسائلا عما اذا كانت كل بنات فنلندا في الفتنة التي تبدو بها فيرنا ؟ هل كل بنات فنلندا لهن ، الى جانب القامة الممشوقة ، هذا الانف الاقنى الذي في عرنينه شمم ، وهـــذه البشرة الوردية التي تسري فيها صفرة كأنها لمعة ذهبية وراء تويجات وردة شفافة ، وهاتان العينان اللوزيتان اللتان تلتمعان ببريق الرغبة تحت أجفان مبطنة على اعتداد نفسي كبير ؟ لم يكن م. يعرف لصاحب السعادة ، وصاحبه ، أ. هذه القدرة على تلوين الكلام . لقد مضـى في اطراء فيرنا الى درجة خيل الى م. فيها ان بياتريس ، صديقة صاحبه ، أخذت تتململ غيرى . كانت عينا هذه الاخيرة ، وهمـــا خضراوان واسعتان ، تومضان وميضا قاسيا غير متلائم مع الابتسـامة التي ارتسمت على شفتيها الشيقتين . وفجأة قطع أ. حديثـــه بالفرنسية ، وقال ، باللهجة الاخرى :

ـ لماذا لم تأت اليّ كل تلك الايام ... أيام اقامتي في القصر ؟

فاجابه م. ، وبنفس اللغة : آتي لافعل ماذا ؟ ليقابلني حجـابك بجفاء ، محتجين بضيق وقتك عن استقبال الزوار ؟ ثم ، اذا استطعت الوصول اليك ، لتصرفني بعد دقيقة استقبال ، متصورا اني جئتك طامعا بمنصب او طالبا لنفوذ ؟ أنت الذي نسيت أصحابك ...

قال أ. بهدوء : لم أنسك . بعثت اليك مرة .

قال م. : بل مرتين . في الاولى جاءني جماعتك يطلبون مني ان أكون تابعا . لا أدري هل قوّلتهم أنت ما قالوه ، أم ارتجـــلوه هم بانفسهم . أسمعتهم كلاما لا أظنهم نقلوه اليك ، لانهم لا يجرأون . وفي المرة الثانية تلقيت من جهتك دعوة لحضور احتفال كبير ، استعـــراض مشهود يجري تحت رعايتك . هل تراني من جماعة الاحتفالات ؟

قال أ. ، وبنفس اللهجة الهـــادئة : المتساهلون لا نفع فيهم ، والذين منهم نفع جفاة ... متصلبون ... متكبرون . أين يمكـــن للحاكم ان يجد ملائكة ، أطهارا وبنفس الوقت متواضعين ؟! كان يجب ان تحضر ذلك الاحتفال . كان فرصتك لتقـــول لي ما تريد قوله

بصراحة ، بدلا من الكلام الذي كنت تردده عني في المجتمعات التي تناوئني ...

نطق أ. جملته الاخيرة بنفس الطبقة الخافتة من صوته ، الا ان لهجته كانت قاسية تفتقد اللين الذي بدأ به الكلام . قال م. بما يشبه السخرية :

ـ يبدو ان رجالك السريين كانوا ناشطين في نقل الاخبار اليك. ومع ذلك فانهم لم يكونوا يقولون لك الصحيح . او صدقوك لما التقينا اليوم في فندق الاكاسيا . لا شك في انهم لم ينقلوا اليك ما قلته حقا عنك في تلك المجتمعات التي وصفتها بانها مناوئة ...

قال أ. : ماذا كنت تقول عني ؟

قال م. : في كل مكان كنت اقول ان رئيسنا أ. انسان مخلص . صدقني في اني لم أكن أداهن في هذا . آمنت حقا بانك كنت مخلصا، وذا نوايا طيبة . ولكن الناس هنا ، في باريس ، يقولون ان جهنم مبلطة بالنوايا الطيبة . ما علينا ... كنت اقول عنك انك مخلص ، الا اني أتمنى أن تكون اسلم تفكيرا لتدرك انه ما من دكتاتور مات حتف انفه او على رأس سلطانه ... الا بريمو دي ريفيرا . هتلر قبر تحت انقاض برلين ، وموسوليني شنق من قدميه . وقبلهما اغتيل يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ ، ومات نابليون منفيا في سانت هيلانة . كل دكتاتور ذاهب ، وما يبقى منه هو فعله . بقيت من نابليون قوانينه المدنية ، ومن هتلر الاوتوسترادات التي سبق بها الزمن عشرين عاما على الاقل . كنت أتمنى أن تترك انت في بلادنا شيئا يذكرنا بك قبل ذهابك المحتم ، ولو كان هذا الذهاب ... الى جهنم !

تضاحك م. وهو يقول كلماته الاخيرة ، الا ان أ. لم يبتسم لضحكة صاحبه وقال في حدة :

ـ ليس هذا ما نقله لي عن لسانك أولئك الاوغاد . ولو نقلوه ، ماذا كان بامكاني ان افعل والخونة يفتحون لي الثغرات في كل مكان ؟ حتى أنت ، يا صاحبي ، خنتني .

قطب م. أساريره . كان سمح الخلق ، بطيء الانفعال في العادة. الا ان حدة أ. ضايقته ، فأجابه في حدة مثلها :

ـ أنا لم اخنك .

لم ينتبه الرجلان الى ان الفتاتين ، الباريسية والفنلندية ، كانتا تتابعان نقاشهما بلغتهما الغريبة بامعان وفضول ، حتى قالت بياتريس ، صاحبة أ. :

ـ ما هذا ؟ هل تتشاحنان ؟

فالقى أ . ظهره الى مسند الاريكة وراءه وقال بالفرنسية :

ـ نتشاحن ؟ ربما . نحن نستعيد ذكريات قديمة .

قالت فيرنا : ومع ذلك فانكما أخوان قديمان ... هكذا قلت لنا منذ قليل .

قال أ. : هذا صحيح . والاخوان ، الا يتشاحنون ؟ خصوصا اذا كان في القصة فتاة ؟

فصفقت الفرنسية بيديها وقالت :

ـ اذن كنتما تتنافسان على فتاة . هذا بديع . خبرني يا عزيزي. ما هي القصة ؟ ما اسم الفتاة ؟

فتطلع أ. الى صاحبه ، وابتسامته الماكرة ، القديمة ، على شفتيه . قال له ، بلغتهما :

ـ لنرو لهما واحدة من حكاياتنا . حكاية فتاة البنسيون مثلا ...

ثم استدار الى الفتاتين وقال بالفرنسية :

ـ الفتاة اسمها ليندا . لا تستح يا صديقي . انت ترو الذكريات خيرا مني ... فارو لهاتين العزيزتين حكاية ليندا .

★ ★ ★

زوى م. ما بين حاجبيه . انها لامبالاة أ. ، او قدرته على التظاهر باللامبالاة ، أو قدرته على التهرب من الامور الجليلة الى التوافه ، لا يزال يملكها بعد كل الذي مرّ به ومر بالبلاد التي حكمها دون منازع ذات يوم . الا ان م. قال في نفسه : لعل الحق مع أ. ... هل هذا مكان المشاحنة مع صديقه القديم ، وهل هذا ظرفها ؟ ماذا يهم هاتين الصبيتين الجميلتين ، بياتريس وفيرنا ، من همومهما السياسية المنقرضة ؟ قال هذا في نفسه وتطلع الى فيرنا ...

فيرنا ... انه عرفها منذ يومين فقط . لقيها في مقهى السيليكت على رصيف الشانزيليزيه . كان جالسا وصديقا له على احدى الموائد حين رآها تدخل المقهى وقد بدا عليها القلق . كانت ، على ما تبين له ، ضيقة بمطاردة شاب لها ، دخل المقهى في اثرها واتخذ له مقعدا وراءها . في ضيقها انسكبت قطرات من القهوة التي حملها اليها الخادم على ثوبها ، فسارع م. الى مسح القطرات عن الثوب بمنديله قبل ان تتسرب الى بشرة الساق تحته . خطر له وهو يجري بأصابعه ، عبر الرداء ، على ساقها المشيقة المفعمة ، ان صاحبة هذا الرداء مضيفة طيران ، للونه الكحلي وبساطته الانيقة ... ولجمالها هي ! شكرته الفتاة وواصلت معه الحديث بيسر ، وقبلت دعوته الى العشاء بعد ذلك . وضحكت حين اخبرها بظنونه عنها . قالت له انها ليست مضيفة طيران ، بل زائرة لباريس متنزهة ، وان ما جذبها اليه هو لباقته في التصرف وفي الحديث ، في حين انها نفرت من ذلك الفتى الذي كان يلاحقها ، على الرغم من رواء منظره ، للجاجته والحاحه السمج في مطاردتها . لباقته اذن هي التي قربته من فيرنا ، فهل يضيع هذه اللباقة في ان يقضي هذا الاصيل امامها في ملاسنة مع مواطنه أ. ، عن مشاكل سياسية لبلد لا تعرفه الا بالاسم ، وقد تكون لم تسمع به ؟ ليجار اذن أ. ويرو للفتاتين احدى حكاياتهما المسلية . عن ليندا مثلا .

وكان فيرنا كانت تقرأ في افكار م. وهو يحدث نفسه بهذا ، اذ لم تلبث حتى قالت له مستحثة :

ـ هيا يا عزيزي ... لماذا تتكلمان بلغتكما عن ليندا ولا تشركاننا في حديثها ؟ أعدك بأني لن أغار منها . هل هي جميلة ؟

ربت م. على كف فيرنا في تحبب وقال :

ـ لا أخاف من غيرتك من ليندا . انها جميلة ، ولكن حكايتها قديمة ، وأنت أجمل منها . غير ان أ. في مشاحنته لي لا ينسى نشأته العسكرية . العسكريون ، اذا كنت لا تعرفين يا عزيزتي ، لا يذكرون الا انتصاراتهم . اما معاركهم الخاسرة فتغيب في فجوات ذاكرتهم .

قالت بياتريس ، موجهة كلامها الى صديقها أ. :

ـ هذا يعني ان الانتصار كان حليفك في هذه المعركة ... معركة ليندا . لا ادري ، يا عزيزي ، هل يسعدني هذا ام انه يضايقني . ومع ذلك فاني أحب ان اسمع تفاصيل المعركة .

قالت فيرنا : نعم . وانا في شوق الى سماع التفاصيل . كيف كانت ليندا ؟

قال م. : كانت سمراء ، خمرية ، اللون المفضل في فتيات بلادنا، جسدها يتفجر صبا وانوثة . ابنة صاحبة البنسيون الذي كنا ننزل فيه أ. وأنا . أنا يومها كنت طالبا في آخر سني الجامعة ، وهو كان ضابطا نقل الى حامية العاصمة منذ فترة قصيرة . كما ترين ، هو أسنّ مني . كان متزوجا وله اولاد ، بينما كنت صبيا لم أدرج في الحياة بعد ...

قاطعه أ. قائلا في خبث ، وهو يضم خصر بياتريس اليه :

ـ كان شابا جميلا . ليس كما ترينه الآن . آسف ايتها الفنلندية الفاتنة ... لست أريد أن أطعن في ذوقك في مصاحبتك له ...

فقربت فيرنا رأسها من م. وطبعت على خده قبلة خاطفة ، وقالت :

ـ م. ؟ اني أراه اجمل الرجال !

كان كل ذلك مزاحا ، ومع ذلك فان م. لم يملك نفسه من ان يتطلع الى صديقته الفنلندية في امتنان . وتابع قائلا :

ـ كانت ليندا تعرف ان أ. متزوج ، ومع ذلك سقطت في شباكه. كنت سابقا له في سكنى البنسيون ، وقبل ان ينضم هو الينا كانت ليندا تالفني كثيرا . في الصباح ، حين كانت تحمل اليّ القهوة كانت تجلس على حافة سريري لتروي ماذا جدّ وجرى في الحارة امس، ومحاولات نزلاء غرف البنسيون الاخرى في مغازلتها . كانت تنحني لتقلب الكتب التي أضعها عند رأسي ، فيلمس صدرها الناهد كتفي ، وتملأ انفي رائحة الليمون من عطرها الصباحي المتواضع . وأحيانا كانت تدغدغ قدميّ من تحت اللحاف لتستحثني الى القيام من فراشي ...

قاطع أ. صاحبه مرة اخرى وقال : انظري يا فيرنا . ان صديقك يعترف بغبائه . ليندا كانت سمراء متوقدة ، يثب ثدياها في صدرها وثبا . فتاة تتفجر بالرغبة تجلس على حافة سريره ، تنحني فوقه ، بحجة تقليب كتاب ، حتى تسحقه بذينك الثديين ، وهو يقنع منها بوصف عطرها الليموني . غبي !.. ثم جئت انا ...

قال م. : صحيح . وجاء أ. غازلها ... تهربت منه ... لاحقها ... ألحّ في ملاحقتها . شكت لي ليندا مرة انها كادت تسكب القهوة على سريره فتنالها من ذلك غضبة من امها تصل الى حد ضربها، لانه تمسك بها يريد تقبيلها عندما حملت اليه القهوة في غرفته . كانت غرفتانا متجاورتين . غرفتي لها شرفة اذا وقفت فيها رأيت كل ما في غرفته من خلال نافذتها المفتوحة . ذات يوم من اوائل الصيف ، في فترة الظهيرة ، وقفت في شرفتي فرأيتها ،ليندا، في غرفته على سريره . لم يكن هو في الغرفة ، فما كان يحضر الى البنسيون في النهار . كانت ليندا نائمة القيلولة في سرير أ. ربما سمعت يا بياتريس بحر الصيف في بلادنا . هذا ما جعل ليندا تنام شبه عارية ، وجعلها تفتح النافذة واسعة ، فأراها كذلك. ما اروع ما كان جسمها ، وما اشد ما كانت اثارته !.. اوداليسك نارية التقاطيع على فراش من زبد أبيض ! وقفت لحظة جامدا اتطلع اليها بعينين نهمتين . كان بيننا ما بين الشرفة والنافذة المحاذية لها ، ولكني توهمت ان نظراتي قد اثرت فيها حتى انبهتها من نومها ، اذ رأيتها تتمطى في رقدتها فينفلت احد نهديها من حمالته ، ثم تنقلب ملقية ساعدها على الوسادة ،ثانية احدى ساقيها على الاخرى ، مبرزة لعيني المبهورتين انحناءات جسدها الفتي في أجمل خطوطها ...

قاطعت بياتريس ،هذه المرة م. في حديثه فقالت :

ـ فيرنا ، يا عزيزتي ... صاحبك شاعر . انت محظوظة ، اذا كان يصفك للناس ، عندما يتحدث عنك ، بهذه التعابير التي يصف بها تلك الفتاة ...

قالت فيرنا ، متجاهلة كلمات رصيفتها الباريسية ، وكأنها مشوقة الى متابعة الحكاية :

ـ ثم ماذا يا عزيزي ؟

قال م. : لا مفر لي من الاعتراف الان بأني ذهلت عن الكتاب الذي احمله ، متجولا به بين غرفتي والشرفة ، في خلال مراجعتي لدروسي فيه ، حتى وقع من يدي ، وبأن قلبي ازدادت ضرباته ، وريقي جف في حلقي ، حين رأيت هكذا جسد ليندا في تلك الظهيرة الحارة . ولكن ذلك لم يدم الا لحظات قليلة، ثم لم البث بعدها ان فطنت الى ما يمكن ان يحدث لليندا لو كان الناظر اليها غيري ... ولو كان الناظر صديقي بالذات ، هذا الصديق العزيز أ. !... تصورت ماذا يمكن ان تتعرض له ليندا الغافلة لو ان صاحب السرير الذي تنام عليه دخل فجأة غرفته ورآها فيها ، على فراشه ، مثل رؤيتي لها الان ! هتفت بها عبر النافذة بصوت ابح : ليندا ... ليندا ! تململت، ثم فتحت عينيها ببطء . يبدو انها كانت مستغرقة في النوم ، فلم تحاول ان تستر عريها عن عيني ، بل جلست على الفراش جلسة اتاحت لي ان ارى جمال جسدها بصورة جديدة . اذا كنت يافيرنا قدمت من هلسنكي عن طريق كوبنهاغن فلا بد انك رأيت تمثال حورية البحر المنتظرة عودة الغائبين ، على الصخرة في المرفأ . ما كان اشبه ليندا بتلك الحورية في تلك الجلسة ... على جسد أيس جسد عروس هانس كريستان اندرسن البحرية الوديع ، بل جسد فاتر مثل جسد ليندا . الحقيقة اني لم أع كيف حدثتها محذرا اياها من غدر هذا الذئب ، لو عاد الى البنسيون في هذه الظهيرة ، داعيا اياها ان تكمل قيلولتها في غرفة امها في الطابق الارضي . لم تفهم ما قلته لها في اول الامر ، ربما لغلبة النعاس عليها . ولعلها لهذا ايضا بدت لي غير راضية حين التفت ، في نزق ، بردائها الذي كان ملقى على حاشية السرير وخرجت من الغرفة ممتثلة لما طلبته منها ....

انطلقت من أ. في هذه اللحظة قهقهة خفيفة ، يمكن اعتبارها بالنسبة لمزاجه المتحفظ ضحكة عريضة ، وقال مخاطبا فيرنا :

ـ على ماذا يدل كل هذا الذي يعترف به م. امامك ؟ كانت عادتي في تلك الايام ان اتناول غدائي في نادي الضباط ، ولا اعود الى البنسيون الا ليلا . ليندا كانت واثقة من اني لن ادخل عليها الغرفة في تلك الساعة . تعرضت لهذا النبي عن قصد . تعرت له ، واستلقت له على السرير . ما كان بينه وبين ان يحرز تلك الكنوز التي نثرتها له على سريري الا ان يستدير فيدخل الغرفة من الباب بدلا من ان يتحرق بالتطلع اليها من خلال النافذة . ثم انه بعد ذلك لا يتورع من ان يضيف الى اعترافه بالغباء ، وبالعجز ، اعترافه بانه كان يجاهد لابعادها عني . لماذا ؟ ماذا كان ينفعك من هذا ؟

قال م. : لم اكن ابحث عن منفعتي انا . كنت اشفق عليها .

قال أ. : ولماذا ؟ اي علاقة لك بها ؟

قال م. : كانت قريبة الى قلبي ... احببتها .

قهقه أ. مرة ثانية وقال : اعتراف بديع . وانا كذلك احببتها ، ووصلت بها من الحب الى غايته .

قال م. : احببتها انت على طريقتك ... طريقة ان تنال ماربك ممن تحبه . اما انا ، فان طريقتي هي ان اسعى الى خير من احبه ولو على حساب مآربي . حين اخبرتني ليندا بانك اخذت تطارحها الغزل حذرتها من طريقتك ، كمسكري ، في الحب . انكم ، في العادة ، تعنون بالحب الاستيلاء ، وتسلكون اليه طريق الاغتصاب .

تناهض . من جلسته لسماعه هذه الكلمات من م. ، وسحب ذراعه التي كان يحيط بها خصر بياتريس ، وقال بلهجة ساخرة :

ـ هكذا اسلوبك دوما في انتقادي . لست انسى ان ليندا ابتعدت عني فترة طويلة ... بفضل ارشاداتك . ولكني رغم ذلك كسرت حدتها، ليندا ، وطوعتها لرغباتي . سأروي لهاتين الجميلتين كيف قطفت اناملي الزهرة التي اسكرك عطرها ، وكيف قضمت باسناني الثمرة التي تحلّب لمرآها ريقك ... على الرغم منك ... ايها المتآمر عليّ.. ايها الخائن لي ...

هاتان الكلمتان الاخيرتان قالهما أ. باللغة الاخرى ، لغتهما المشتركة التي لا تفهمها الفتاتان ، الباريسية والفنلندية . وقالهما بصوت خفيض ولكن بنبرة عنيفة . بنبرة الحدة التي عرفها منه م. في الايام الخوالي . وهذا ما جعل م. ينقض ويرد عليه ، بلغتهما ايضا :

ـ كم تكرر هذه الكلمة ؟ انا لم اخنك .

* * *

استمر الحديث بتلك اللغة الاخرى التي لا تفهم منها الفتاتان حرفا ، فردّ أ. قائلا لصاحبه :

ـ تتعتني دوما هكذا ... بالاغتصاب ... في الحب ، وفي السياسة . ماذا افعل لك ولامثالك ؟ انتم عاجزون ، وتقرون بعجزكم ، فاذا جاء غيركم وضرب الضربة التي لم تقدروا عليها قلتم عنه انه

مغتصب . رحتم تحوكون له الاحابيل ، وتضعون في طريقه العراقيل.. اليست هذه هي الخيانة ؟ كان لغيرك ان يفعل هذا ، ولكن انت ، بما بيننا ، كيف تطاوعك نفسك على خيانتي ؟

كان اصرار أ. على اتهام م. بالخيانة مثيرا لهذا الاخير . قال بلهجة من نفد صبره :

ـ اسمع . لم يخبرك احد بالذي جرى قبل ان يقتلعوك من منصبك بشهر واحد . هل تريد ان اخبرك به ؟

قال أ. باستهانة : قل لنر .

قال م. : انها قصة لم تسمعها قبل الان ، ولم اروها لغيرك . كنت في ضيعتي ، وكنت انت على سروج خيلك ، منتشيا بخمرة السلطان ، تقرع حولك طبول النذر فتحسبها موسيقى تعزف لمجدك . كان ذلك في اوائل العام ، وانت نزلت من كرسيك في الشهر الثاني او الثالث منه . ذات يوم قرع عليّ الباب ضابط من حامية البلدة القريبة ، يحمل في يده دفترا سميكا يضع اصابعه بين ورقتين منه ، واستاذنني في ان يسر اليّ بكلمة . ادخلته غرفة منعزلة ، وقلت له اني مصغ اليه . قال : جئتك بامر خطير فيه الحياة والموت لي ولك ولناس آخرين ، كثر ، وللبلاد باسرها . قلت له : تكلم ، لا افهم ماذا تعني . قال : نحن نعرف انك لست بعيدا عن الاحداث بفكرك ومشاعرك وان بعدت عنها بشخصك ... لست محتاجا الى من يعلمك الى اي حد وصل هذا الطاغي في طغيانه ... كيف استهان بحريات الناس ، وتحكم بمقدرات البلاد ، وسخر الدولة لمآربه الخاصة ...

فاعترض الكلام أ. ، قائلا بهدوء كان م. يعرف اي حنق يكمن تحته : مآرب خاصة لي ؟ هل جمعت المال لشخصي ؟ هل عشت حياة الترف ؟ قل لي ... ماذا كان اسم هذا الضابط .

قال م. : ارجوك . استمع لحكايتي . قلت للضابط : ما بلغ الناس كلهم بلغني ، وربما اكثر ... ولكن اية علاقة لي بهذا ؟ قال : ساصارحك ... لقد قررنا ازاحته ... واذا سالت من نحن الذين قررنا ، فاني اعلمك اننا فئة من العسكريين انا اصغرهم رتبة ... درسنا الامور دراسة دقيقة وحسبنا الاحتمالات كلها ، وقدرنا المخاطر، وعينا ساعة الصفر ، وجئنا نخبرك ! تملكني العجب من كلام الضابط ، واعدت السؤال عن علاقتي الشخصية بالامر . قال : جئنا نخبرك لاننا واثقون منك ولاننا بحاجة اليك .... المنطقة الشرقية وحدها هي التي لم تعلم بعد بالخطة ، ولم تنضم بعد الينا ... ستنضم الينا حتما حين تخبر بها عن ثقة ، وانت الثقة .... ما من انسان يقابل قائد تلك المنطقة الا كان موضع شبهة وملاحقة ، الا انت .... تذهب انت الى هناك فتقابل القائد ... ان دواعيه للخلاص من هذا الطاغي اكثر الحاحا من دواعينا نحن ، ولكن الفرصة لم تتهيا له بعد ... اسمع تخبره بما يلي ... قال الضابط هذا وفتح الدفتر الذي في يده عند الصفحتين اللتين بينهما كان يضع اصابعه . كان يريد ان يقرأ لي تفاصيل خطة كانت مكتوبة في ذلك الدفتر . مددت يدي الى الدفتر فاطبقته ، وقلت له : يا صاحبي ما يدريك باني اوافقك على آرائك ، وباني اقبل فعل ما تطلب مني فعله ؟ وكيف تأتمنني على سر له مثل الخطورة التي تصفها ؟ اجابني الضابط بقوله : قادتي واثقون منك .. وواثقون من انك لن تفشي لنا سرا حتى لو كنت في جهة تناهضنا . ابتسمت وقلت له : شكرا لقادتك على ثقتهم ... ولكني ارجوك ان تحتفظ باسرارك الان ، واترك لي مهلة ساعة افكر فيها فيما تعرضه عليّ ...

توقف م . قليلا عن اتمام حكايته ، ونظر الى أ . الذي ضاقت عيناه واطبق قبضتيه واسند اليهما شفتيه ، ضاغطا عليهما ، كانه يحول دون ان تنطلق الشفتان بكلام لا يريد ان يتلفظ به . واستمر سكوت أ. ، فتابع م. الكلام قائلا :

ـ تركني الضابط ، ثم عاد اليّ بعد ساعة ليعلم قراري . قلت له اني موافق على كل ما اورده بشأن طغيان الطاغية .... الذي هو انت ، يا أ. ...

وهنا ازاح أ. قبضتيه عن فمه بسرعة ، كانهما اندفعتا بالكلمات التي انطلقت من لسانه بحدة ، على الرغم من خفوت صوته . قال :

ـ تسمع كل هذا ، وتوافقهم على آرائهم ... ثم تقول لي انك لم تخني ! من كان يظنك قادرا على هذا ؟ صحيح انني لم ارك كل مدة ولايتي ، ولكني كنت انظر اليك بغير هذه العين . لو تعرف اي طعنة تصيبني بها الان بهذا الكلام الذي تقوله . وبالطبع شاركت بالمؤامرة ... حملت الحربة وجئت لتغرسها في جنبي ... آه منك يا بروتس !

لم يكن أ. يقول هذه الكلمات مازحا . الا ان صوته الخافت كان يخفي المرارة التي تنطوي عليها هذه الكلمات لمن لا يفهم معناها . ولذا فان بياتريس ، الباريسية ، كانت خالية البال من فحوى النقاش الذي كان يتبادله الصديقان حين قطعت كلام أ. قائلة :

ـ ما هذا ايها السيدان ؟ كانكما نسيتما اننا هنا .. تستعيدان ذكرياتكما عن تلك الاسمراء النارية لوحدكما ، وبلغتكما . ما رأيك يا عزيزي ؟ يحسباننا طفلتين ، فيخفيان علينا اجمل ما في اللعبة .

قالت فيرنا : صحيح ... كانكما تريدان ان لا تخدشا حياءنا برواية التفاصيل . لا تخشيا علينا شيئا من هذا . قلت يا عزيزي انه اغتصبها . كيف اغتصبتها ... كيف ؟

ضحك أ. على الرغم منه . او انه تضاحك متهربا من انفعاله الذي فرّع به مواطنه وصديقه . وعاد الى التحدث بالفرنسية، لتفهمه الفتاتان .

* * *

قال أ. ، بالفرنسية :

ـ هل تجدين حقا ان من اللياقة وصفي لك تفاصيل اغتصاب فتاة؟

ان م. يصر على كلمة اغتصاب ، في حين ان ليندا ما كانت ترى الحكاية كذلك . مشيت انا اليها قدما ، فتقدمت هي اليّ خطوات . قادتني منها الى حيث لم اكن اتوقع . ذات مرة ، وفي احدى خلواتنا الرائعة، سمعتها تردد وهي تضمني بحرقة : لماذا ... لماذا يجب ان تظل الفتاة عذراء الى ليلة زفافها ؟

فصفقت بياتريس مرة اخرى بيديها وهي تقول ، موجهة سؤالها الى م. :

ـ اوه ... هل كانت تلك الفتاة عذراء ؟

تطلع م. بحنق الى أ. . ربما كان حنقه متأتيا من كلبية أ. وسهولة انتقاله من حديثهما الجاد الى ذكرياته الفاسقة . وربما كان لتهاونه بما بدأ بروايته له عن وقائع هامة وثيقة الصلة بمصيره ومصير البلد . وربما كان ذلك الحنق لهذه اللهجة التي يتكلم بها أ. عن صلته بليندا ... ليندا التي انزلق لسان م. فاعترف بانه كان يحبها ! قال م. مجيبا بياتريس :

ـ هذا السؤال لا يوجه اليّ انا يا آنسة ...

ثم تابع الكلام ، باللغة الاخرى ، متوجها الى صاحبه :

ـ لماذا لا تخبرهما بحقيقة ما نتحدث عنه ؟ انك ترفض ان تسمي فعلتك اغتصابا ، كما ترفضون ان تسموا اغتصابا استيلاءكم على السلطة وتحكمكم بالقوة في رقاب العباد .

وبدا كان الحنق الذي تملك م. طامن من الحدة التي انتابت أ. فقد عاد هذا الى هدوئه ، وقال ، بالفرنسية ، متحدثا الى فيرنا هذه المرة :

ـ انظري الى صديقك يا عزيزتي ... لا يعجبه ان اقول ان تلك

التي يغار عليها استسلمت اليّ برضاها ، بارادتها ...

ثم اضاف يقول بلغتهما المشتركة :

ـ لا تلتفت اليهما والى اسئلتهما السخيفة . اكمل لي الحكاية.

قال م. ، بنفس اللغة : سأكملها لك . ماذا تظنني فلت لذلك الضابط عند عودته ؟ اذا كنت وافقته في رأيه ، الذي أجمع عليه الناس ، عن طفيانك ، فلا تحسب اني قبلت منه تنفيذ ما طلبه فادته مني . في الساعة التي استمهلته فيها ادرت ما قاله لي في خاطري . انه يريد مني أن أتآمر عليك . كنت في الحقيقة اريد ان تذهب ، واتمنى ان تذهب . ولكن ما كان في مكنتي ان أتآمر عليك . انا انسان ذو رأي فلته ، واظل اقوله ، على رؤوس الاشهاد . أما عمل الخفاء فليس عملي . ثم لاقل لك الحق ... تمثلتك في عنادك قد قبلت التحدي ، فصمدت مقاوماً من يحاولون اسقاطك بالقوة ، وتمثلت انك في صمودك قتلت ، ثم انك قتلت . هالتني صورتك قتيلا ، في مذبحة لي فيها طرف اصبع ، ثم اجد مقبولا ، حتى في التصور ، ان تكون نقطة من دمك في عنقي . لهذا ابلغت الضابط ، عندما عاد ، اني ارفض المشاركة في العمل الذي دعاني ورؤساؤه اليه ...

قال أ. في جد منطو على سخرية أليمة :

ـ ما أكبر المنة التي لك في عنقي ! حفظت لي منصبي ، وحقنت دمي ...

قال م .: لا تسخر . رفضي الانقسام الى خصومك أخّر الاطاحة بك شهرا كاملا عن موعدها المقرر . وليس ذنبي اذا كنت اكثرت من حفر الحفر في طريقك ، فكان لا بد من سقوطك في واحدة منها . يكفي ان تثق من اني لم اخنك ، وقبل ذلك لم اخن انا ذاتي وطبعي .

قال أ. : بهذا تسوق دليلا آخر على عجزك . كان يمكنك ان تسعى اليّ ، فتخبرني بما علمته ، فتكون لك عليّ منة حقيقية . او لو انك سرت مع أولئك الاوباش الى غايتهم ... اذن لوقفت معهم على منصة الظفر التي اعتلوها باسقاطي ...

قال م. : أرانا لن نتفق في يوم من الايام يا عزيزي أ. ... اسفي على الذكريات التي عشناها معا بين ايام سكنانا في البنسيون ويوم استيلائك على السلطة . كنت اظن اخلاصنا للبلد قادرا على ان يوحد بيننا . وها اني أكتشف ان السبل المتباينة ، في السير الى الهدف الواحد قادرة على ان تفرّق بين السائرين مثلما تفرقهم الاهداف اذا كانت متباينة ...

وهنا قالت بياتريس مخاطبة فيرنا :

ـ يا صديقتي الجميلة ... صاحبانا يصران على تجاهلنا وعلى استعادة ذكرياتهما لنفسيهما . ما رأيك بجولة على ارصفة الشانزليزيه في هذا الاصيل المشرق ؟ سنجد شبابا كثيرين قادرين على استهوائنا بحديث مفهوم ، بلغة معقولة ، هناك .

فضم أ. باريسيته ضمة قوية بذراعه ، وقال لها ، بلغتها :

ـ لا تحاولي اثارتي يا بياتريس ... دمنا حار ، حتى ان بدونا هادئين الى درجة الغباء .

قالت فيرنا : اني مصرة على ان اعرف تتمة القصة مع عذرائك السمراء .

فضحك أ . وقال : ماذا اصنع لصاحبك ؟ انه لا يرضى ان اسئ الى ذكرى ليندا ... التي احبها هو ، باعترافه ! ومع ذلك فانني سأروي لكما من القصة نهايتها .

فسألت فيرنا ، في تشوق : نعم ... كيف كانت النهاية ؟

قال أ. : احببت تلك الفتاة على طريقتي ، وهي الطريقة التي لا تعجب م. كانت تعرف عيوبي، ومع ذلك فقد استسلمت لي . استوليت عليها ... اذا كان هذا هو التعبير الذي يعجب م. . يمكنني ان اقول لكما انها احبت فيّ عيوبي . ولكن يا عزيزي ، في بلادنا يكثر العذال ، وهم فئة من الناس العاجزين ، الحاقدين ، الذين يطيب لهم ان يفرقوا بين الاحبة حتى لو لم يجنوا من ذلك منفعة شخصية . اوغرت هذه الفئة صدر الفتاة عليّ ، وثاروا عليّ اهلها . كان يمكنني ان اسحقهم بقوة ساعدي ولكني لم ارد ان اسيء الى اهل فتاتي . هل ادل من ذلك على حبي لها ؟... لم ارد ان اسيء الى اهلها ، ففضلت الانسحاب بهدوء ، لئلا تحدث المجزرة التي كان ممكنا ان تحدث ...

سكت أ. هنا ، وتوجه الى م. فقال له ، بلغتهما :

ـ نعم ... انسحبت انا بهدوء . لم تحدث المجزرة التي خفت انت منها . لا تظن انسحابي كان لخشية من ان اقتل بيد واحد من اولئك المتآمرين . انا آثرت ان لا اقتل احدا . كان مصير نابليون احب اليّ من مصير يوليوس قيصر ، او من مصير هتلر وموسوليني ... ما دام لم يتح لي حظ بريمو دي ريفيرا .

قالت بياتريس ، محتجة : هذه اللغة ... الا تستطيع ان تهجر الكلام بها ثلاث دقائق متوالية ؟

فقال م. : ان صاحبك يقول فيها كلاما لا اقتنع به . الناس في بلادنا ، كما قال هو ، دمهم حار ، والانسحاب الذي تكلم عنه لن يعطيه الامان . ما ضحى به من أجل الفتاة لم يدر به احد ، اما ما اساء به اليها والى اهلها فقد عرفه الناس كلهم . يا عزيزتي الجميلة، ضمي على أ. ذراعيك جيدا . احميه بحبك ، فان الكره الذي تركه في قلوب كثيرين له أيد طويلة ...

قال م. هذا وهو يضحك . فمدت بياتريس ذراعيها وطوقت بهما منكبي أ. ، وهي تضحك ايضا ، والجميع يضحكون .

* * *

بعد هذا اللقاء الباريسي بشهور ، او بسنين قليلة ، تلقى م. وهو في بلده ، رسالة من هلسنكي جاءته من صديقة تلك الايام ، فيرنا . رسالة طويلة ، جاء في بعضها ما يلي :

« ... هل تدري ؟ فوجئت منذ أيام برؤية صورة صاحبنا الذي التقينا به مرة في الاكاسيا ، في باريس ، منشوره في احدى مجلاتنا. كان ما كتب تحت الصورة مفاجأة لي اكبر . كان تحقيقا عن مصرع صاحبك برصاصة من يد مواطن له في الغربة . لا بد انك حزنت لهذا النبأ ، اني اشاركك حزنك . لماذا لم تخبرني ان أ. كان شخصية بهذه القيمة في بلادك ؟ تذكرت حين قرأت التحقيق الحكاية التي اثارت مشاحنتكما حول فتاة في وطنكم اسمها ماذا كان . ليديا او ليندا ؟ انت حذرته مما سيلحق به من آثار تلك الحكاية . مسكين على هذا المصير . المجلة تقول في التحقيق ان سبب الاغتيال كان سياسيا . معلومات الكاتب مستقاة بلا شك من مصدر غير موثوق ، فانا اعرف من حديث ذلك اللقاء ان السبب عاطفي . السياسة ، لا اظنكم ترونها تستحق ان يقتل الانسان فيها له عدوا . اما في الحب ، فقد افهمتماني انت وهو ، أن دمكم فيها حار . وحتى لو لم تخبراني فانا جديرة ، ايها العزيز م. ، ان اعرف اتقاد عاطفتكم مما تبقى لي من ذكرياتي معك في تلك الايام الرائعة .... انا ، فيرنا ! » .

الرقة (سوريا) **عبد السلام العجيلي**